الكتابة ومكانتها الحضارية عند العرب

الأستاذ المساعد الدكتور
عبد الحسن حسن خلف
كلية التربية ـ جامعة ميسان
قسم اللغة العربية

المقدمة:

اللهم أصبحنا لا نرجو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك لا اله إلا أنت تفضلت علينا فهديتنا ومننت علينا فعرفتنا ، وأحسنت إلينا فأعنتنا على أداء ما فرضت علينا ، فلك الحمد بمحامدك كلها على نعمائك كلها ، حتى ينتهي الحمد إلى ما تحب وترضاه ، فصل على محمد وعلى آله .

بعد أن حمدت الله وأثنيت عليه، نظرت إلى القلم الذي أكتب به ، وتصفحت الأوراق التي أدون فيها، فحمدت الله مرة أخرى على توفرهما وجودتهما ، نحصل عليهما بثمن قليل، ولا نبذل في إعدادهما جهدا، وفكرت في ما كان القدماء يعانون من مشقة وما يبذلونه من جهد في الكتابة على أوراق صعبة ورديئة، وتراءت إمام ناظري جدران الكهوف وصفائح الصخور ومدارج الجلود المدبوغة وكراريس الدفاتر ، واوحت هذه الصور إلى ذاكرتي تاريخ الحضارة وتطور مراحلها، فقد كان الإنسان وما يزال ضعيف الذاكرة وتضعف ذاكرته كلما تطورت حضارته، وتقدم به العمر، وكثرت حاجاته، وصعبت حياته وتنازعت رغباته، وضعف نشاطه وقواه ، ولا يستطيع إن يخلد أخباره ويصف معارفه من النسيان إلا بالكتابة وخطوطها، فهي وسيلة تفاهم بين الناس، ومرفق يعينهم وينفعهم في حياتهم وتداخلهم مع أبنائها ، وتذكيرهم بتجارب وأعمال

أجدادهم، (فلولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة والحكم المخطوطة، التي تحصن الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع إلى موضح استذكار ، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع) [١].

وشيء نافع إن نتذكر الكتابة وأدواتها وعلاقتها بمراحل الحضارة ، واختلافها باختلاف تلك المراحل، والشيء الذي نعرفه إن الحضارة العربية بدأت في العصر العباسي، فرأيت أن اخصص البحث عن الكتابة وأدواتها بهذين العصرين، وما بينهما يعد امتدادا لأولهما وتمهيدا لثانيهما، فخصصت لهما مبحثين، الأول للكتابة وأدواتها في العصر الجاهلي والثاني في العصر العباسي، وقد لاحظت الجاحظ والمثقفين في عصره من خلال آثاره يولون اهتماما بالكتابة وأدواتها، ويجادلون في أهميتها ويختلفون في المفاضلة بين أدواتها، فرأيت من الأنصاف إن أخصص المبحث الثالث لمكانتها الثقافية في عصر الجاحظ .

وفي نهاية مقدمتنا، وقبل إن نبدأ بحثنا ، ندعو القارئ الكريم إن يقرأ معنا قوله تعالى:

[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] [٢] .

المبحث الأول
الكتابة وأدواتها في العصر الجاهلي

تختلف المادة التي يكتب فيها باختلاف العصور والمراحل الحضارية والمادة الخام المتوفرة في كل بلد ، وقد ذكر ابن النديم أن (العرب تكتب في أكتاف الأبل واللخاف وهي الحجارة الرقاق البيض ، وفي العسب عسب النخل)[٣] وإذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا الإشارة إلى الجلود هي الأعم الأشهر ، ففي بيت لطرفة يصف فيه خد ناقته بالقرطاس في الملاسة ومشفرها بالجلد المدبوغ في البيت :

وخد كقرطاسي الشـــامي ومشـــفر
كسبت اليماني قده لم يحـــرد [٤]

وفي البيت أكثر من دلالة ، الأولى انه نسب القرطاس إلى الشامي والجلود إلى اليماني مما يعني إن الكتابة على الورق عرفها أهل الشام ، ولعل ذلك يعود إلى قربهم من مصر ، التي أشار ابن النديم إلى اشتهارها بالقرطاس [٥] ، وإن أهل اليمن عرفوا الكتابة على الجلود ، وقد ذكر شارح المعلقات إن (السبت : جلود البقر المدبوغة بالقرظ) [٦] وقد ذكر اللغويون إن ورق القرظ خاص بالدباغة [٧] ، ومعلوم إن وجه الشبه المقصود في البيت هو (اللين) ويبدو إن دباغة الجلود بالقرظ التي عرفها اليمنيون هي مرحلة بين الدباغة بالنورة التي تمتاز بالجفاف، والدباغة الكوفية بالتمر التي تمتاز باللين اللتين أشار ابن النديم اليهما[٨]. يبدو إن الجلود كانت مناسبة لتحسين الخط وتجويده في العصر الجاهلي ،مما جلب أنظار الشعراء ، (أنشد المرقش) :

الـــدار وحـــش والرســـوم كمـــا
رقش فـــي ظهـــر الأديـــم قلـــم

وبهذا البيت سمي المرقش [٩] ، والترقيش يدل على التزويق والزخرفة فهو في الأصل النقش [١٠] ، وقد أحس الشاعر إن القلم يغرز في الأديم فيترك فيه خطا أشبه بالنقش في زخرفته وجماله ، وكأنه أدرك إن الخط فن ، ذلك إن الكاتب إذا تأنق (في خطه وجوده وصف خطه بالترقيش والنمنمة والتنميق) [١١]

، وقد أعتمد الشعراء الوسائل اللغوية في تقويم الفن ، لأنهم يفتقرون إلى معرفة بأصوله ومبادئه قال سلامة بن جندل :

لمــن طلــل مثــل الكتــاب المنمــق
خلا عهــده بــين الصــليب فمطــرق
أكــــب عليــــه كاتــــب بداونمــــه
وحادثه في حدة العــين مهــرق (١٢)

وانكباب الكاتب على أدوات كتابته يدل على الانشغال والانهماك بتجويد الصنعة ، والنظر إلى الأشياء بحيرة هو انفعال بالجمال الذي يثيره الفن ، والفنان بنظرته الحادة إليه هو أول من ينفعل به والمهرق فارسي معرب (١٣) ، وهو قريب في مادته من الجلود ، فقد كانوا (يأخذون الخرقة ويطلونها بشيء ثم يصقلونها ،ثم يكتبون عليها شيئا) (١٤) ، وكأنها بديل عما نعرفه اليوم استخدام الألوان والأصباغ في الفن، ويبدو أنهم يستخدمون المهارق في كتابة الاحلاف والعهود، قال الحارث بن حلزه:

واذكروا حلفَ ذى المجاز ومــا قُــدّ
مَ فيــــه العهــــودُ والكُفَــــلاءُ
حَذَرَ الجَوْرِ والتَّعدي وهــل يــنقض
مــا فــي المهــارق الأ هَــواْ (١٥)

وقد نزل القرآن الكريم بجميع أدوات الكتابة إلا المهرق (١٦)، ولعل سبب استثناء القرآن الكريم المهارق من الذكر، أنها تتضمن عهوداً وأحلافا جاهلية تعكس عادات وقيماً حارب الإسلام كثيراً منها والكتابة على المهارق بطبيعة مادتها والإصباغ المستخدمة فيها أسرع إلى الاندثار مما يكتب على الجلود، وقد حدد زهير عاماً لتغير ما يكتب على الجلد، قال:

أمنْ آل ليلــى، عرفــتَ الطُّلــوُلا؟
بــذى حــرضٍ، مــاثلاتٍ مُثــوُلا
بلــــينَ، وتَحسِــــبُ آياتهــــــــــ
نَّ، عن فَرْطِ حولين، رَقاً مُحيلا(١٧)

فالطول تبلى بعد عامين من رحيل أهلها عنها، وتتغير الكتابة على الجلود بعد عام من كتابتها، وهو أمر طبيعي في مجتمع صحراوي ذي طبيعة قاسية، وتنعدم فيه العناية بالآثار المكتوبة، ويفتقر إلى أماكن خاصة لحفظها، والشيء الذي يلفت النظر في البيتين ان الشاعر استخدم لفظة (الرق)، وتعني (جلداً رقيقاً)(١٨)، مما يدل على أنهم خصصوا نوعاً من الجلود للكتابة عليها. ويبدو إن وسيلتهم في تجديد الآثار المكتوبة كانت تجديدها بعد تقادم عهدها، وظهور آثار الاندراس عليها، قال لبيد:

وجَلا السيول عــن الطلــول كأنهــا

زبــر تجــد متونَهــا أقلامُهــا(١٩)

وقد استخدم الشاعر كلمة (متن) التي تعني الصلابة، ونطلقها في ثقافتنا الحالية على النص، أي المادة الأساسية في الكتابة، ويبدو أنها استخدمت بعد ظهور شروح على الأصول (٢٠)، ولعل الشاعر يقصد بها (سطور الكتابة) لأن (متني الظهر مكتنفا الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم)(٢١)، وهما اشبه بسطري الكتابة- ولن يصلح التجديد ما افسد الدهر، وا يخفف معاناة الشعراء، الذين اقترنت في ذاكرتهم، وترسبت في وعيهم صورتان حضاريتان هما: الطلل والكتاب- اللذان لن يفترقا عن ذاكرة الشعراء، ما إن يمروا بالطلل إلا بكوا عليه، وشبهوه بالكتاب الدارس، فأثار الطلل والكتاب الحزن في نفوسهم، قال امرؤ القيس:

لِمــن طلَــلٌ أبصــرتُه فشــجاني

كخطّ زَبورٍ في عســيب يمــان(٢٢)

ثم تبدأ سلسلة من التساؤلات: لمن طلل؟ لمن الديار؟ أتعرف رسما دارسا؟ وإذا لم تعرف أهله فهو كخط زبور أو مثل الكتاب المنمق(٢٣) وهذه التساؤلات والتشبيهات تعبر عن أحساس حاضري عميق، لان الطلل صورة للوطن الذي نشأ الإنسان على أرضه، وترعرع بين أحضانه، وارتبط بعلاقات اجتماعية مع أهله، فهو ذكرى للمنزل والزوجة والصديق والحبيبة، ولا يلام الشاعر إذا (وقف واستوقف وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل)(٢٤). إما حزنهم على الكتاب،

فأنه يعود لأمور عديدة: اولها ادبي، وذلك إن صورة الطلل الدارس ارتبطت في تشبيهاتهم بالكتاب المدروس، حتى أصبحت تلك الصورة بمرور الزمن تقليداً ثقافياً متعارفاً مما جعل الحزن على الدال عليه هو حزن على الدلالة نفسها، والثاني: نفسي هو إن الشعراء اغلبهم لا يعرفون القراءة والكتابة وعي الشيء المكتوب أسرار مجهولة لديهم وغامضة عليهم، وإذا ما اندرست يصير الغموض مركباً: غموض المضمون وأخر في الصورة والأسرار الغامضة والمجهولة تقلق النفس عادة، وتوقعها في حيرة، والأمر الثالث: حضاري لعل الشعراء أدركوا إن الكتابة اداة حضارية لصيانة احلافهم وعهودهم، وقد ذكرنا سابقاً إن الحارث بن حلزة حذرهم من الجور والتعدي، بأن يجعلوا أهواءهم تنقض ما ابرموه من أحلاف وعهود في المهارق، وقيل إن (اهل اليمن يكتبون في عسيب النخلة عهودهم وحكامهم)(٢٥)، ولذلك قالوا: كخط زبدت في عسيب يمان، وقد ذكرا ابن قتيبة إن العرب تقول: زبوت الكتاب ازبره زبرا وزبورا إذا كتبته، وإذا كانت ذبرته بالذال تعني قرأته(٢٦)، وعبارة: تقول العرب تدل على أنها لغة مشهورة ومعروفة بينهم، وإذا دققنا النظر فيها، بدا لنا إن اصلها يماني، (فقد غلب الزبور على صحف داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام)(٢٧)، ما يعني أنها كتابة دينية، قال امرؤ القيس:

أتتْ حِججٌ بعدي عليها فأصــبحت
كخطّ زَبورٍ في مصاحف رُهْبَانِ(٢٨)

ومعلوم إن الرهبنة الخاصة بالنصرانية التي انتشرت في اليمن وخاصة نجران، وقد وصف امرؤ القيس الزبور بأنه في عسيب يمان كما ذكرنا سابقاً (٢٩)، مما يعني أنها كتابة يمانية وقد خص ابو ذؤيب الذبر بالكاتب الحميري قال:

عَرَفْـــتُ الـــديارَ كَـــرَقم الـــدَّوا
ة يـــذبرها الكاتـــبُ الحميـــريُّ(٣٠)

ووصف الشعراء لها ومعرفتهم بلغتها يدل على أنها كتابة منتشرة فجاوزت حدودها المحلية في اليمن إلى شمال الجزيرة، ويعبر حزن الشعراء عليها عن قلق ديني ناتج عن تنوع المعتقدات واختلاف العبادات، وتصارع بعضها كما حدث بين النصرانية واليهودية (٣١).

إذا اتجهنا شمالاً نجد اليهود يشكلون (قبائل وجماعات كثيرة، انتشرت في واحات الحجاز: يثرب وخبير ووادي القرى وتيماء)[٣٢]، وقد وقع نظر بعض الشعراء على كتابة بلغة عبرية قال الشماخ:

أتعرفُ رسماً دارساً قد تغيَّــرا
بذروة أقــوى بعــد ليلــى وأقفــر
كمــا خـــطَّ عبرانيّـــةً بيمينـــه
بتيماءَ حَبْر ثم عَرّضَ اســطرا[٣٣]

والإشارة إلى الكتابة أكثر تفصيلا ودقة من الإشارات السابقة، فقد ذكر الشاعر لغة الكتابة وكتابتها وموقعها، وكأنه يؤرخ لها وتخصيص اللغة يدل على انه قد رأى كتابة أخرى تختلف عنها في اللغة، وانه يدرك الفروق بينها، ويبدو أنها مرحلة متطورة في الكتابة، حيث وصف كاتبها بأنه (حبر: بالفتح والكسر... والذي عندي انه الحبر بالفتح، ومعناه العالم بتجبير الكلام والعلم وتحسينه)[٣٤]، ولذلك قال في بداية البيت (كما خط) وان دلت على كتب إلا أنها تتضمن التصميم، ولم يصف الشاعر هذه الكتابة بالقدم كما اعتاد الشعراء، ليوافقوا بين المشبه (الرسم الدارس) والمشبه به (الكتابة التي خفيت اثارها) مما يعني أنها كتابة حديثة ومتطورة، وكتبت بيد مدربة، وقد حاول الشاعر ان يدخل تعديلا على المشبه به ليلائم المشبه الذي تغير واقفر، فجعل الكاتب المتقن يعرض أسطر، و(التعريض: ضرب من الخط يكتبه الكاتب، وهو في عجلة من امره ولا يتأنى ولا يتأنق، فيأتي خط مغير بين، من قولهم عرض ولم يصرح، وهذا الخط المعرض هو الخربشة)[٣٥].

وهذه الخربشة التي وضحها الشارح، والتعريض الذي ادخله الشاعر هو إقحام على الفن وتزويق في غير محله- ولا نحس في البيت حزناً على الطلل أو الكتابة، وقد اكتفى بهذين البيتين في مطلع القصيدة، والتفت إلى وصف الناقة، وسمعنا ابنته في البيت السادس تقول له: أصبحت شيخاً، وقد أدرك الإسلام فأسلم، مما يعني إن الهموم الحضارية التي يوحي بها الطل والكتابة قد ضعفت في نفسه.

إذا توغلنا في الصحراء لم نجد إلا الصخور والحجارة، والناس بين مرتحل ومقيم، والرياح والسيول تعفي آثار الراحلين فتلازم الكتابة الطلل ملازمة الحي

للميت وتقوم مقام الالواح المكتوبة على قبور الموتى، والمنقوشة على الحجر فتتخذ طابعاً تذكارياً أو نقشاً آثاريا قال لبيد:

عَفَت الديارُ مَحلُّها فمقامها بمنىً تأبدّ غولُها فرِجامُها

فمدافعُ الرَّيانِ عُرّيَ رسُمها خَلَقاً كما ضَمِن الوُحِيَّ سلامُها[٣٦]

والبيتان لا يثيران الحزن فحسب، بل الحزن المصحوب بالوحشة والرهبة، والذي يبرز مظاهر مختلفة هي: الالفاظ، والمعاني، والصور والموسيقى، ولا نريد الوقوف عندها، إذ يعد استطرادا، ونكتفي بالأخيرة منها فموسيقى البيت ذات نبرات طويلة متتالية، حيث تتكرر الالفات والهاءات المصحوبة بالألف والحزن والإطلال أكثر من الكتابة ، لأن الكتابة كما قلنا في موقف الخلود، والطلل في حكم الاندثار، والمادة المكتوب عليها وهي الحجارة هي التي ضمنت للكتابة الخلود، وكأن الشاعر ينتصر للمكان، وتفقد الكتابة هنا دلالاتها الذاتية كمادتها ومضمونها وصاحبها، وتحتفظ فقط بدلالتها التذكارية، ي أنها مجرد (أثر)، ولذلك أطلق الشعراء عليها لفظة (وحي)[٣٧]، والتي تعني (الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي)[٣٨]. أي أنها دلالة حضارية، ولكنها بدائية، لان الدلالة الحضارية في المجتمعات المتطورة تعني رموزاً تعبر عن أفكار، بينما هي في المجتمعات البدائية أشارة تعبر عن شيء خفي، فلا تخدم حاجات كثيرة، وإنما تعبر عن حاجات نفسية، والبدوي أكثر تعلقاً بالماضي، ولهذا يكون الرمز إلى الذكرى أو التعبير عنها حاجة ضرورية في نفسه، وقد انشغل الشعراء بمادة الكتابة وهي الحجرة، لأنه وعاء الذكرى وهي الكتابة، قال زهير:

لِمن الديارُ غشيتُها بالفدفد ؟ كالوحي ، في حَجَر المَسيلِ المُخلدِ [٣٩].

فقد حرص الشاعر على الأثرين: الطلل والكتابة، فقد حدد الطلل بالفرفد وهي (الأرض المرتفعة فيها صلابة وحجارة، وقيل هي الأرض المستوية)[٤٠]، ونميل إلى التفسير الأول، لأنه يتفق ورغبة الشاعر في مقاومة الطلل لعوامل الاندثار من رياح وسيول، وقد خص الكتابة بالحجر المسيل، أي الذي (يكون في مجرى الماء، فهو اصلب له)[٤١]، أي انه يختار مادة جيدة للكتابة عليها تمتاز بصلابتها وملاستها ونقائها، وقد وصفه بأنه مخلد أي (مقيم ثابت) [٤٢]، لأنه إذا تحرك أو نقل من مكانه فسيتعرض للأضرار، ومنها تغيير وضعه وسماته وكذلك انكساره، إذا توسعنا نقول انه يعامله معاملة الآثار الفنية التي تتطلب متاحف خاصة تحافظ عليها وتحميها من عوادي الناس والزمن.

المبحث الثاني
الكتابة وأدواتها في العصر العباسي

ذكر ابن النديم في كلام مركز أدوات الكتابة وعوامل تطورها خلال العصور، والبلدان التي ظهرت فيها، فأشار إلى إن الناس كتبوا على الطين زمن آدم، ثم كتبت الأمم على النحاس والحجارة قبل الطوفان، وبعدها على الخشب وورق الشجر، وكتب أهل مصر في القرطاس الذي يعمل من قصب البردي، وكتب الصينيون في الورق الذي يعمل من الحشيش، وقد فسر عوامل التطور بالرغبة في الخلود وحاجة الوقت [٤٣] والشيء الذي يهمنا هو أدواتها في العصر العباسي، وقد اشار ابن النديم إلى تطور مرت به بقوله: (فأما الورق الخرساني فيعمل من الكتان – ويقال انه حدث في أيام بني أمية، وقيل في الدولة العباسية، وقيل انه قديم العمل- وقيل: انه حديث وقيل إن صناعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني فإما أنواعه: السليماني الطلحي، النرحي، الفرعوني، الجعفري، الطاهري، أقام الناس ببغداد سنين لا يكتسبون إلا في الطروس، لأن الدواوين نهبت في أيام محمد بن زبيدة وكانت في جلود، فكانت تمحى ويكتب فيها، قال: وكانت الكتب في جلود دباغ النورة، وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر، وفيها لين)[٤٤]، فالتطور الحاصل هو انتقال الكتابة من مادة الجلود إلى الورق، وهو تطور حاسم في الثقافة، ويحتمل إن يتسرب هذا التطور من مصدرين مصر والصين، والذي حدث انه اقبل من الصين، لأن الدولة العباسية التي قامت في خراسان وارتبطت باهلها، وكانت اقرب إلى الصين موقعها وتأثراً، واقرب الاقوال صحة انه حدث في الدولة العباسية، لأن الجاحظ ينقل في رسالته (في الجد والهزل) التي أهداها إلى محمد بن عبد الملك الزيات جدلا بين أنصار الجلود وأنصار الورق ، مما يعني أن التطور قريب عهد بزمن تأليف الرسالة ، ولو حدث أيام بني أمية لا ستقر الناس على صنف منهما خلال هذه المدة التي لم تكن قصيرة واختفى الجدل حول الصنف الأخر ، بل إن الناس قد استعملوا الصنفين أيام الجاحظ ، مما يدل إن التطور من مراحله الأولى ، وقد حدث التطور لعاملين :

الأول سياسي، هو انتصار المأمون ذي الاتجاه الخرساني على أخيه محمد الأمين ذي الاتجاه العربي يناصره البغداديون ، وقد نهبت الدواوين التي

كتبت بالجلود في أيامه ، ولعل ذلك بسبب الحرب . والعامل الثاني : اجتماعي ، وذلك أن صناعا من الصين عملوه بخرسان من الكتان على مثال الورق الصيني ، أي أنه تقليد للصناعة الأصلية التي قال عنها ابن النديم إنه (يعمل من الحشيش ، وهو أكثر ارتفاع البلد) [٤٥] ، ولعل المقصود إن ثمنه مرتفع لجودته ، ويبدو إن صناعته تطورت زمن ابن النديم ، حيث ظهرت منه أنواع خمسة :

لكل من الورق والجلود مسميات تعارف الناس عليها ، ولما كان تطورا حديثا وصناعة مستوردة ، أطلقوا عليه أسماء دخيلة ، منها "الطامور والطومار" ويعني الصحيفة ، وعده بعضهم عربيا [٤٦] ، ذكره الجاحظ بقوله : (رب كلام قد ملأ بطون الطوامير ، قد عرف جملته وما فيه الضرر منه بسحاءة .... أو حرف تبين من ظهره) [٤٧] ، ومعلوم إن الذي يمزق بسرعة ، وتنتشر منه أجزاء ، والذي تبين حروفه من ظهره هو الورق لخفته ، و(الدَّفتر والدِّفتر... يعني جماعة الصحف المضمومة ... والدفتر واحد الدفاتر ، وهي الكراريس) [٤٨] ويبدو أنهم كانوا يطلقونه على ما نطلقه عليه اليوم مع اختلاف يسير ، حيث نطلقه اليوم على الأوراق البيضاء المجموعة بحجم صغير ، قبل الكتابة عليها باليد أو بعدها ، والقدماء كانوا يطلقونها على مجموعة الكراريس التي تضم إلى بعضها ، لتؤلف بعد الكتابة عليها كتابا صغيرا فهي أشبه بالدوريات أو السلسلة الثقافية ، وقد روى الجاحظ حديثا على لسان الزيات أحد أنصار الجلود يشير الىما ذكرناه ،(قلت لي... ليس لدفاتر القطني أثمان في السوق وان كان فيها كل حديث طريف ولطف مليح وعلم نفيس، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلودا ثم كانت فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ، لكانت أثمن ، ولكانوا عليها أسرع)[٤٩]، ورخصها في السوق يعود إلى صغر حجمها ومضمونها فأوراقها قليلة والعمل المبذول فيها وهو الكتابة يتطلب وقتا أقصر وجهدا أقل ، ومضمونها لا يحتوي علما أو مادة علمية عميقة ، وإنما هي قصص وأحاديث تسلية ونوادر ومجموعة أشعار أو دواوين صغيرة ، وقد روى الجاحظ حديثين عن أبي عمرو بن العلاء قال : (وما دخلت على رجل قط ، ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت انه أفضل منه وأعقل ، وقال أبو عمرو بن العلاء : قيل لنا إن في دار فلان قد اجتمعوا على سوءه ... فتسورنا عليهم في جماعة من رجال الحي ، فإذا فتى جالس في وسط الدار وأصحابه حوله وإذا هم بيض اللحى ، وإذا هو يقرأ عليهم دفترا فيه

شعر....) [٥٠] ، وقد قطعنا الحديث الأخير وهو طريف، لأنه خاص بالمطالعة وما نقوله الآن إن الحديثين ظريفين ، لأنهما يعكسان صورة مشرقة لتلك الثقافة الجماهيرية التي كانت تلك الدفاتر تزود قراءها بها ، حيث يقرؤها الناس داخل بيوتهم ، أو أثناء جلوسهم على دكات أبوابهم ، وهم ينظرون إلى المارة ، وينظر المارون إليهم بإعجاب وتقدير عندما يرون جيرانهم فارغي الأيدي من تلك الدفاتر ، ويقرأها الشبان في وسط الدور يحيط بهم الشيوخ بلحاهم البيض ، يستمعون إلى تلك الأشعار التي تحتضنها الدفاتر ، والشيوخ أصحاب للفتيان لا يتكبرون عليهم ، والفتيان لا يأنفون منهم ، ويبدو إن الذي الف بين قلوبهم هو هذه الدفاتر التي وفرت لهم لذة المطالعة (وقد علمنا إن أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم ، الكتاب) [٥١]

في نهاية حديثنا عن الورق نريد الوقوف عند تسمياته وأنواعه والأكثر استعمالا منها ، ذكرنا سابقا أقوال ابن النديم في أنواع الورق ، فقد ذكر إن الورق الصيني أجودها وأعلاها ثمنا ، وانه يصنع من الحشيش وقد ظهر الورق الخرساني الذي يصنع من الكتان تقليدا له ، وإذا رجعنا إلى الجاحظ وجدناه يطلق ثلاث تسميات : الأولى هي دفاتر القطني [٥٢] ، ومفهوم أنها تصنع من القطن ، والثاني: الورق الصيني ، والثالثة الكاغد الخرساني ، قال : (وما عليك إن تكون كتبي كلها من الورق الصيني ، ومن الكاغد الخرساني) [٥٣] ، ولهذا الكلام مدلولان: الأول انه أطلق على الخرساني لفظة "كاغد" مما يوحي أنها بدائية، وقد هجرناها منذ زمن ، وأتذكر إن الجيل الذي سبقنا كان يستخدمها بكثرة، مما يعني إن هذا النوع من الورق كان في مراحله الأولى أيام الجاحظ الثاني : إن الجاحظ كان يستخدم أجود أنواع الورق وهو الصيني ، والأحدث في الظهور وهو الخرساني في تدوين كتبه ، أي انه لم يستخدم الجلود - والكاغد الخرساني هو عادة الورق الخرساني المصنوع من الكتان ، وقد تطورت صناعته أيام ابن النديم، حيث ذكر له خمسة أنواع كما ذكرنا ، وكثر استعمال الناس للنوع الأول منه وهو "السليماني الطلحي" ، بدليل إن ابن النديم اتخذه مقياسا لمقدار حجم الشعر (ليعرف الذي يريد جمع الكتب والأشعار ذلك يكون على بصيرة فيه ، فإذا قلنا إن شعر فلان عشر ورقات فأنا أنما عنينا بالورقة إن تكون سليمانية ، ومقدار ما فيها عشرون سطرا اعني في صفحة الورقة) [٥٤] مما يعني أنها كانت مشهورة في الاستعمال ، وحجمها يقترب من حجم الاوراق المطبوعة في

عصرنا ، وتنقص عنها بخمسة أسطر تقريبا ، وكانوا ينسبون عادة إلى البلد الذي تصنع فيه وقد كثرت أنواعها خلال العصور ، ويروى ابن النديم عن رجل كان بمدينة الحديثة جماعة للكتب ، وقد أخرج له (قمطرا كبيرا فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان ، وصكاك ، وقرطاس مصر ، وورق صيني ، وورق تهامي وجلود آدم ، وورق خرساني فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم)[٥٥] ويفهم من النص السابق إن القرطاس خاص بمصر ، حيث (كتب أهل مصرفي القرطاس المصري ويعمل من قصب البردي، وقيل: أول من عمله يوسف النبي عليه السلام)[٥٦]، ومعلوم إن الاهوار المكتظة بالنباتات والبردي تكثر في مصر لوجود النيل والدلتا والوديان المتفرعة على جانبيه[٥٧]، مما يعني إن صناعة الورق مقدر لها إن تظهر في مصر في مراحل متقدمة من الحضارة الإنسانية، ومما ساعد على ذلك ظهور حضارات قديمة فيها.

كان الذين سبقوا ابن النديم، وعاصر قسم منهم الجاحظ أوسبقوه يستخدمون الجلود وقد ذكر ابن النديم إن الجلود استخدمت في الكتابة بعد دباغتها، وقد مرت دباغتها بمرحلتين، الأولى تدبغ بالنورة وهي شديدة لجفاف، ثم ظهرت الدباغة الكوفية، وفيها لين لأنها تدبغ بالتمر[٥٨]، وطبيعي إن تكون الكتابة في الأولى صعبة ومتعبة، وفي الثانية يسيرة إذا ما قيست بالأولى، ولابد أنها مرت بزمن ليس قصيراً خلال المرحلتين.

المبحث الثالث

المكانة الحضارية لأدوات الكتابة في عصر الجاحظ

اختفت الأدوات القديمة للكتابة في العصر العباسي وفي زمن الجاحظ باستثناء الجلود، ونلاحظ في رسالة الجد والهزل للجاحظ إن الاستعمال اقتصر على الورق الصيني والكاغد الخرساني والجلود [٥٩]، وقد ندر استعمال الصيني لأرتفاع ثمنه وبقي الكاغد الخرساني والجلود يتنازعان السيادة، وقد ذكرنا سابقاً إن الكاغد الخرساني عد تطوراً خاصاً في الثقافة ولكل منهما أنصار وخصوم وقد عكست الرسالة المذكورة جدلا بين أنصارهما يظهر الجاحظ فيه نصيراً للورق ومحاوره محمد بن عبد الملك الزيات الذي أهديت الرسالة إليه نصيراً للجلود، ولكل منهما حجج، إذا عرضناها بمعزل عن ظروفها ونظرنا إليها على وفق تصورنا وتطور مجتمعنا المعاصر، بدت لنا سطحية، وكأنها تذكرنا بجدل ظهر في مجتمعنا منذ عشرات السنين عندما كان الناس ينشغلون بامور تافهة، كالمفاضلة بين النساء ذوات السمرة والبياض أيهما أجمل واملح، ليكون لها عرش الحسن، إلا إن الكاغد والجلود في عصر الجاحظ أعمق دلالة، لأنها تعبر عن موقف حضاري وتعكس واقعاً ثقافياً متطوراً، علينا إن ننظر إليه من خلال حديث أنصارهما، ولنبدأ بالقدماء، قالوا: (على الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط وصور العقارات، وفيها تكون نموذجات النقوش وفيها تكون خرائط البرد)[٦٠]، ولا نريد الحديث عن هذه المحتويات، ونكتفي بالقول عنها: أنها جوانب إدارية تتضمن سجلات الجند ومرتباتهم وعقارات الأرض والضياع وصكوك الممتلكات والعهود والاتصالات، ويكون الاهتمام بهذه الجوانب في المرحلة المتقدمة من الحضارة أو المتطورة، أي في بداية نشؤ الدول عندما تكون بحاجة ماسة إليها لتنظيم شؤونها، أو في مرحلة متقدمة من تطورها عندما تزدهر حياتها، وتتشعب ميادين عملها. والدولة العباسية في عصر الجاحظ قطعت شوطا في التطور إلا أنها لم تنضج إلا في القرن الرابع- والكلام الذي اقتبسناه من رسالة الجاحظ كان على لسان الزيات الذي وزر لثلاثة خلفاء[٦١]، فلا عجب إن يدافع عن استخدام الجلود التي يعتمد عليها رجال الدولة في تنظيم الشؤون المالية والادارية، والجلود- في نظر الزيات- (اصلح للجرب ولعفاص الجرة وسداد القارورة)[٦٢]، ونلمح في هذا

الكلام سخرية، ومعنها إن الجلود مادة صالحة لأتخاذ إلا جربة منها، وسداد رؤوس الجرار والقوارير، ومعلوم إن هذه امور تخص التدبير المنزلي وتشغل هموم ربات البيوت والجواري والاماء، ولا علاقة لها بالثقافة والفكر، وهذا هو وجه السخرية.

انصار الجلود لا يخسرون في السوق، لان (لرديدها ثمنا، ولطرسها مرجوع)[٦٣] وهنا تعامل النسخ المكتوبة في الجلود معاملة السلع التي تعرض في السوق احياناً بعد عقد البيع والشراء إن تخيب آمال البائع في الربح، وتتحقق خشية المشتري من الخسارة عندما يتبين له أنها مدلسة أو مغشوشة أو تالفة، وفي هذه الحالات يحدث (الرديدى مقصور بكسر الراء والدال وتشديدها الوٌ ... وراده الشيء أي رده عليه وهما يتردان البيع من الرد والفسخ)[٦٤]. ويبدو إن الود كان يحدث في عصر الجاحظ عن طيب نفس، وقد فقدت اسواقنا ومحلاتنا هذا التعامل الطيب، حيث تقابل زبائنها بلوحة مكتوبة عليها (المباع لا يعاد ولا يبدل)، وقد تحدث في احيان نادرة اعادة أو تبديل إلا أنها لا تتم إلا بعد مشاحنات، خلافاً لما اعتادت عليه اللغة العربية من كرم وسماحة في التعامل بألفاظ وعبارات تنم عن خاطر طيب، نقول: (رد عليه الشيء إذا لم يقبله وكذا إذا خطأه .... وشيء رد أي رديء ... والارتداد الرجوع ... واسترده الشيء سأله إن يرده عليه)[٦٥]، وكلها تدل إن الشيء الرديء وغير المقبول يمكن رده بطلب من المشتري أو باتفاق- يبدو إن الأسواق في عصر الجاحظ كانت تشترط دفع ثمن معين لقاء رد بعض السلع عند شرائها ومن بينها الجلود، حيث ذكر إن لرد يدها ثمن، أي إن بائعها لا يخسر عند ردها عليه، وإنما يحصل على ثمن لقاء ردها، وكأنه أجرة بيع وشراء يدفعها المشتري إذا عزف عن الشراء بعد عقده ولا يعد ذلك خسارة له، لأنه تحمل اخف الضررين، وذلك بأن تجنب خسارة الغش، حيث (يغش الكوفي بالواسطي، والواسطي بالبصري)[٦٦]، والكوفي أجودهن، لأنه يدبغ بالتمر، فيكون لينا [٦٧] وذكر الجاحظ إن لطرسها مرجوعاً و(الطرس بالكسر- هي التي محيت ثم كتبت)[٦٨]، ولعل المقصود بكلام الجاحظ- على وفق هذا- إن لها فائدة، حيث تستخدم لأكثر من مرة عن طريق محوها ثم الكتابة عليها (والمعاد منها ينوب عن الجدد)[٦٩]، لأن صلابتها وطبيعة مادتها تجعلانها (العمل للحك والتغيير)[٧٠]، ويستمر انصارها في الدعاية والترويج لها في السوق، حيث ينتقلون من تحسين مادتها إلى اقبال الناس عليها،

(فليس لدفاتر القطني اثمان في السوق، وان كان فيه كل حديث طريف ولطف مليح وعلم نفيس ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلوداً، ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث، لكانت اثمن ولكانوا عليها اسرع)[٧١]، مما يشير إلى جدل في الثقافة نفسها، حيث نلمح طورين من الثقافة نعكسهما طبيعة المادة المعروضة في السوق وحجم الطلب عليها، وقد قلنا سابقاً أن دفاتر القطني تحمل ثقافة جماهرية، تشمل قصصاً واحاديث تسلية ومجموعة أشعار أو دواوين صغيرة، ويبدو ان القراء أنصار القديم ينفرون من هذه الثقافة وقد روي الجاحظ عن ابن الجهم قوله: (ما احصي كم قرأت من صغار الكتب، فخرجت عنها كما دخلت)[٧٢]، بينما توصف النسخ المدونة في الجلود بالثقل[٧٣]، وارتفاع أثمانها في السوق يعود إلى كبر حجمها وطبيعة مادتها، بصرف النظر عن طبيعة العلم المستودع فيها.

نخلص من ذلك إلى إن الحجج السابقة التي ينتصر بها للجلود تخدم رجال الدولة من قادة الجند والوزراء، والعاملين في الوراقة والاستنساخ واصحاب الحرف المنزلية كالدباغين والزجاجين.

ذكرنا سابقاً إن ظهور الورق يعد تطوراً حاسماً في الثقافة وانصاره في رسالة الجاحظ (في الجد والهزل) لم يسهبوا في شرح سماته والدعاية له وإنما هاجموا القديم (الجلود) بأسلوب الجاحظ الساخر لينقضوه، ويقيموا الحديث الصالح على أساسه، وقد انصرفوا عن السوق واعتباراته الضيقة التي تركز على الربح والخسارة والتفتوا إلى ميادين الثقافة نفسها، لأنها عوامل محركة للتطور وصالحة للبقاء وأدوات الثقافة هي: الناسخ ومادته، والقارئ وصحته، والمكتبة والعناية بها.

إن الحصول على الكتب في العصور القديمة لم يكن سهلاً وميسوراً لأنهم ينسخون كتبهم بأيديهم، مما يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد، ولهذا عنوا بالقلم ووجوه برية، ووضعوا فيه رسائل[٧٤]، لأنه الآلة التي يدون فيها والتي تساعدهم في النسخ بسهولة، إذا ما بري جيدا وبعناية، مما يقصر الوقت ويخفف من المتاعب، أما المتاعب فهي المادة التي يكتب عليها، والحاجة إلى التخفيف من متاعبها كانت عاملاً على تطورها وتتغير طبيعتها، وتعد الجلود حلقة اخيرة في سلسلة التطور، وقد أحسن الناس بمتاعبها ومساوئها عندما ظهرت مادة جديدة تنافسها وتتفوق في الجودة وهي الورق الصيني والكاغد الخرساني، وقد روى

الجاحظ عليها على لسان احد خصومها وهو الجاحظ نفسه: (قال لي: لم زينت النسخ في الجلود، ولم حثثت على الادم، وانت تعلم ان الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن إن اصابها الماء بطلت، وان كان يوم لثق استرخت ولم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى اربابها نزول الغيث، وتكره إلى مالكيها الحيا لكان في ذلك ما كفى ومنع منها، وقد علمت إن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطراً ولا يقطع فيها جلداً. وان تربت- فضلاً على إن تمطر وفضلاً على ان تغرق- استرسلت فامتدت ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد، وتشنج قبيح)[٧٥]، وإذا كان في هذا الحديث وصف دقيق فأدق ما فيه هو السخرية، ومقاصد الجاحظ منها إن، يضحك أنصار الورق، ويبكت أصحاب الجلود، ليفتح أبواب التطور، ويقطع الطريق أمام القديم المتخلف، وفي هذا نؤيده، ونأخذ بيده، والأحرى انه قد اخذ بأيدي جيله وبأيدينا، إلا إننا لا نبتسم إذا قرأنا السخرية، وتذكرنا دوارى الدهر ودولة الأيام حيث يتعثر التطور أحياناً في بدايته، ثم يسير شامخاً يسحق ولا يرحم، يميت ولا يحيى، ونتذكر ما قلنا سابقاً عن الرقوق المكتوبة في العصر الجاهلي، عندما كانت الجلود سيدة الكتابة، كان الشعراء يحزنون عليها إذا ما رؤوها قد محيت أو تغيرت عند هبوب الريح وسقوط المطر، وعندما قلب الدهر للجلود ظهر المجن في العصر العباسي سخر الجاحظ منها ومن أصحابها، عندما يمر على حوانيت أصحابها وقت المطر وهم عطالون بطالون لا يخطون سطراً، ولا يقطعون جلداً، لأن جلودهم أصابها الماء فاسترخت وإذا غرقت فشبعت ماءاً استرسلت فامتدت، فعليهم إن ينتظروا وقتاً غير قصير حتى تجف، ولم تعد إلى حالها عند جفافها إلا مع تقبض شديد وتشنج قبيح- أي أنها أصيبت بمرض عضال، شخص سببه بالمطر، ولهذا يبغض أربابها نزول الغيث، ويكره مالكوها الحيا، ويبدو لنا إن السخرية بلغت ذروتها في استخدام الجاحظ لفظتي (الغيث والحيا) وكلاهما يعني المطر، إلا إن الغيث يوحي إن الأرض يبست ومات نباتها واشتد عطشها فاستغاثت بخالقها إن يسقيها الماء، و(الحيا مقصور المطر والخصب)[٧٦]، وكره أصحاب الجلود للغيث والحيا يعني انهم يدعون على الأرض وساكنيها بالموت والجدب، لكي تبقى جلودهم جافة يكتبون عليها.

بعد إن ينتهي الناسخ من تدوين الكتاب، يطلق عليه اسماً يتفق وطبيعة المادة المكتوب عليها، وفي عصر الجاحظ كان الناس يطلقون اسم (المصحف) على كل كتاب مدون على الجلود، وقد اعترض الجاحظ على هذه التسمية. ودعا

إلى تخصيصها بالقرآن الكريم، قال: (كان في الواجب إن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد، والا يروموا جمع شيء من ابواب التعلم بين الدفتين، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم)[٧٧]، ويفهم من هذا إن المسلمين في العصر الأول قد جعلوا اسم المصحف للقرآن فقط، وان عصر الجاحظ قد خرج على هذا التقليد المتعارف عليه، وقد حقق الزمن للجاحظ ما تمناه، ففي عصرنا لا نطلق كلمة (مصحف) إلا على القرآن الكريم وكانوا يسمون كل ورقة من الجلود (مدرج)[٧٨]، وتدل هذه التسميات على انهم خصصوا الجلود للمؤلفات الضخمة، مما جعلها (جافية الحجم ثقيلة الوزن)[٧٩]، مما جعلها عبئاً على القراء قال الجاحظ لنصيرها: (كنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل إلى المصاحف التي تثقل الايدي، وتحطم الصدور وتقوس الظهور)[٨٠]، مما جعلها تضاعف متاعب المطالعة، التي ولع بها القدماء مع مشقتها، ورغبنا عنها في عصرنا مع يسرها وتوفر اساليب الراحة لنا، فقد كانوا يفترشون الأرض، ويجعلون الكتب في حجورهم ويحنون عليها رؤوسهم، ويرفعونها بأيديهم، وإذا سافروا يحملونها على ظهورهم، (ولو أراد صاحب علم إن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير، ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع زاده)[٨١]، مما يعني إن ظهور القطني كان تطوراً حضارياً، خفف عن القراء متاعب صعبة ووفرا لهم ما لا وعليهم جهداً، فقد استبدل الجلود (الاكثر ثمناً)[٨٢] بالدفاتر القطني التي ليس لها (اثمان في السوق) أي أنها رخيصة ومتوفرة، مما يعني أن هنالك تطوراً صناعياً قد حدث ووفد مالاً وجهداً كما ذكرنا وحافظ على صحة القارئ لأن الجلود المهجورة كانت (أنتن ريحاً)[٨٣] تؤذي عشيرها القارئ وتقزز نفسه، ولما كان هذا واقعها وصفة لازمة لها، فأن اشارة الجاحظ بمثابة سخرية بأنصارها، ومضمونها ان عشاقها قد زكمت انوفهم، وتبلد ذوقهم فلا يشمون رائحتها الكريهة، التي تلازمها إذا نديت أو غرقت مدة ليست قصيرة، (قال محمد بن اسحق والذي رأيت انا بالمشاهدة إن ابا الفضل بن العميد انفذ إلى هاهنا في سنة نيف واربعين كتبا منقطعة أصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت باليونانية ... وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحة، حتى كأن الدباغة فارقتها عن قرب، فلما بقيت ببغداد حولا جفت وتعرت وزالت الرائحة عنها)[٨٤]، مما يضطر القراء إلى هجرانها خلال هذه المدة التي تعد انقطاعاً ثقافيا، وكأنها دخلت في

مرحلة الحجز، والشيء المؤلم في النص أنها اصيبت، أي تعرضت لمصيبة، وقد وصف كتبها بانها منقطعة ولعله يقصد مهجورة، وذنبها الذي هجروها بسببه أنها كانت باليونانية ولهذا لا يفهمونها، وإذا كان فيهم من يفهمها، فأنه لا يستطيع مواجهتها، لأنها في نهاية نتن الرائحة، وذلك أنها مكتوبة على الجلود، والشيء الذي يؤدي القراء والجاحظ خاصة إن الجلود (تعمي الأبصار)[٨٥]، وذلك معروف في قتامة لونها وافتقارها إلى النقاوة، مما يجعل الحبر غير مشرق فيها، مم يزيد في غموضها ومتاعب البصر في قراءاتها إن الكتاب في عصر الجاحظ (لا يقرأ إلا ليلا)[٨٦]، وقد يتغلب على هذه الصعوبة من تمتع بنظر سليم، لكن الجاحظ الذي (ضعف بصره وكل نظره فأنه ابدا اقرب مصباحاً وأعظم نارا، وان المحترق، والمحرور الملتهب، والبائس المتهافت، وإذا كان صاحب كتب ودروس، انه لا يجد بدأ من الصبر على ما يحرقه ويعميه، أو يترك للقراءة فيها والتعرض لها، فخيرتني بين العمى والجهل وما فيهما حظ لمختار)[٨٧]، وهي عبارات تنم عن حزن وحسرة على امرين هما : العافية والمتعة، والجاحظ قارئ متهافت على المطالعة والدرس، إلا انه بائس لضعف بصره، ولهذا يخشى العمى إذا استمر في هذه الرغبة القوية، والجهل إذا ترك القراء، وهنا نستطيع إن نفسر ما قلناه سابقاً من إن الجاحظ كان يستخدم اجود أنواع الورق وهو الصيني ، والأحدث في الظهور وهو الخرساني في تدوين كتبه، أي انه لم يستخدم الجلود، لان الانكباب عليها والصبر على قراءتها يهدده بالعمى، وقد ذكرنا أنها تعمي الأبصار، وحرصا على نظره ومراعاة لضعف بصره دون كتبه بالورق والكاغد، ودعا إلى استخدامهما واستبدالهما بالمادة القديمة (الجلود)، ولهذا كان يحسد الزنادقة هو ومعاصره ابراهيم بن السندي على (المغالاة بالورق النقي وعلى تخيير الحبر الاسود المشرق البراق)[٨٨]، لان هذه المواصفات تنطبق على ارقى ما وصلت إليه الكتابة وأدواتها في عصرهما، مما يجعل الكتب أنيقة في مظهرها، وأوضح للعين في قراءتها، واصبر على عوادي الزمن في تغير كتابتها.

لم يغب عن فكر الجاحظ مقاومة الكتب لعوادي الزمن بعد نسخها ، وكان للكتب في عصر الجاحظ عدوان هما : الأرضة والفأرة ، تختلف شهيتهما باختلاف المادة المكتوب عليها ، تحب الأرضة إن تأكل الخشب وما أشبهه والفأرة يعجبها إن تقرض الثياب وما هو اصلب منها ، اعني الجلود ولا يستطيع

أنصار الورق ولا أنصار الجلود إن يحميا مؤلفاتهم ، وأقصى ما يستطيعانه هو إن يتحملا أخف الضررين ، وهو إن يؤخرا هجوم العدو ، ويبطيء سرعة زحفه ، ولكنهما اختلفا في أي العدوين هو أسرع ، قال الجاحظ لصاحب الجلود : (زعمت إن الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت إن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد)[٨٩]، والسخرية في هذا الكلام لطيفة، اتخذت الجدل أساسا، فقد أثبتت قضية ، وأنكرت نقيضها وأثبتت نقيض الثانية إلى الأولى ، وقصد الجاحظ فيها إن يظهر قائلها الذي هو صاحب الجلود بمظهر المماحق السفسطائي ، وكلاهما على حق ، حين تنبها إلى إن للكتب آفات يخرج بعضها من الأرض ، وأخرى يسببها الجو ، وتظهر ثالثة بتقادم العهد .

الخاتمة

لو عدت إلى الأوراق السابقة أراجعها أو أتأمل فيها لاستخلاص نتائج منها لوجدت الطرافة تشير بيدها وتوميء بالتسليم عليها ، أما الطرافة في أسلوب كتابتها أو استخدام مصادرها وطريقة عرضها ، فذلك حكم انتظره من القارئ الكريم ، قد يثني علي فيه أو يلومني ، ولن أكون إلا شاكرا لما يذم ويرضى ، ولكن الطرافة التي ادعيها في طبية موضوعها والمرحلة التي تخصها ، ذلك إن الكتابة وأدواتها عامل لتطور الحضارة ومظهر بارز من مظاهرها ، وهي تعكس رقي الفكر وانتشار الثقافة وحرص المجتمع عليها ومدى استجابة الظروف المادية لمتطلباتها . ولا أدعي إن الكتابة في هذا الموضوع نادرة أو فريدة ، ولكن المصادر الموثوقة التي ترتقي إلى عصر ما قبل الإسلام في هذا الموضوع نادرة إن لم تكن معدومة ، والعلة تكمن في الموضوع ذاته ، وهي ندرة الكتابة في ذلك العصر ، فلم تصل إلينا نصوص معرفة عنه ، فاعتمدنا على الشعر الذي وصل إلينا مرويا غير مدون ، وأحسب إن نتيجة المبحث تكمن في هذا ، لأننا حاولنا إن نبحث عن طبيعة التدوين وأدواته ودلالته على المستوى الحضاري من خلال مصادر وصلت إلينا مروية وهي الأشعار وقد توسعت الأمصار في العصر العباسي ، وتوفرت مواد الكتابة ، ونضج الفكر الإسلامي والعربي ، مما أدى إلى تنوع أساليب الكتابة وكثرة أدواتها ، واحسب النتيجة الثانية تكمن في هذا ، حيث حاول المبحث إن يحدد مصادر أدواتها وتنوع أساليبها وتأثر السوق بهذا التطور وموقف الناس والمثقفين خاصة منها وعلاقة ذلك بالمستوى الحضاري للعصر وخاصة عصر الجاحظ .

وبعد ، فالبحث يعبر عن جهد متواضع يتعلق بجانب هام من جوانب الثقافة ومجالات التأليف وأساليب النشر ، لعلي وفقت فيه ، واعتذر عن هفوة في الفكر أو زلة في التعبير أو الخطأ في الحكم ...وحسبي الله .

المصادر

القرآن الكريم .

١- أدب الكتاب ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، (ت ٣٣٦هـ) نسخة وصححه محمد بهجة الأثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ.

٢- الحيوان ، الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الأولى ١٣٥٦هـ -١٩٣٨م .

٣- ديوان أمرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، مصر الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، سلسلة ذخائر للعرب "٤".

٤- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف القاهرة١٩٦٨ .

٥- ديوان المعاني ، العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل الناشر مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٢هـ .

٦- رسائل الجاحظ، الجاحظ ت- عبد السلام محمد هارون الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٦٤ .

٧- رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ، ابن قتيبة – عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ) تحقيق هلال ناجي ، المورد .المجلد التاسع عشر ، العدد الأول ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٨- شرح أشعار الهذليين ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ت-عبد الستار أحمد فراج. مطبعة المدني، كنوز الشعر "١٣" .

٩- شرح ديوان علقمة، طرفه، عنترة، تحقيق وشرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨ .

١٠- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري– ت. د.أحسان عباس، مطبعة الكويت الكويت ١٩٦٢.

١١- شرح المعلقات السبع، الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن محمد (ت٤٨٦هـ) الناشر دار الجيل للنشر والطباعة بيروت ، ط الثالثة ١٩٧٩.

١٢- شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمرى ، ت- فخر الدين قباوة منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ط الثالثة ١٩٨٠ .

١٣- الشعر والشعراء . أبن قتيبة ، واضعة واعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان ، دار احياء العلوم ، بيروت ، ط الثانية ١٩٨٦ .

١٤- العصر الجاهلي د. شوقي ضيف . دار المعارف ، مصر ط الرابعة ١٩٦٠ .

١٥- الفهرست ، ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي أسحق الوراق ، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان ، دار المعرفة – بيروت، ط الأولى ١٤١٥هـ -١٩٩٤ م .

١٦- فن الشرق الأدنى القديم– سيتن لويد، ترجمة محمد درويش. دار المأمون، بغداد ١٩٨٨.

١٧- لسان العرب ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) .

١٨- مجموع أشعار العرب ، الأصمعيات – اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسي منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط الأولى ١٩٨١ .

الهوامش

(١) الحيوان ٤٧/١ .
(٢) العلق / ١-٥.
(٣) الفهرست ص٣٥ .
(٤) شرح ديوان علقمة ، طرفة، عنترة ، ص٧٨ القد : مصدر قده اى قطعه ، يحرد يقطع قطعا متفاوتا .
(٥) ينظر الفهرست ص٣٥.
(٦) شرح المعلقات السبع ص٧٤-هامش (١) .
(٧) ينظر مختار الصحاح ، (قرظ)
(٨) ينظر الفهرس ص٣٦ .
(٩) رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ص١٦٤-وينظر البيت في الشعر والشعراء، ص١٢٤، وفيه: الدار قفر.
(١٠) ينظر مختار الصحاح (رقش) .
(١١) ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني ص١٢٩ .
(١٢) مجموع أشعار العرب /الاصمعيات٥٠/١.
(١٣) ينظر مختار الصحاح "هرق"
(١٤) شرح المعلقات السبع ص٢٣٣ هامش (٢)
(١٥) شرح المعلقات السبع ص٢٣٢-٢٣٣.
(١٦) ينظر: ادب الكتاب ١٠٥/٢.
(١٧) شعر زهير بن ابي سلمى ص١٩٢- ذو حرض: موضع- الماثلات: المنتصبات: بلين درسن وتغيرن- آياتهن: علاماتهن. من فرط حولين: بعد مضي حولين، المحيل: الذي اتى عليه حول.
(١٨) اللسان (رقق).
(١٩) شرح ديوان لبيد. ص٢٩٩.
(٢٠) ينظر مختار الصحاح (متن).
(٢١) المصدر نفسه والمادة.
(٢٢) ديوان امرئ القيس ص٨٥.
(٢٣) ينظر: مجموع اشعار العرب/ الاصمعيات ٥٠/١، شعر زهير ص٢٢٩، ديوان الشماخ ص١٢٩.

(٢٤) ديوان المعاني ٢٧٥/١.
(٢٥) ديوان امرئ القيس ص٨٥، هامش (١).
(٢٦) ينظر: رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ص١٦٤، اللسان (زبر)
(٢٧) اللسان (زبر).
(٢٨) ديوان امرئ القيس، ص٨٩.
(٢٩) ينظر: العصر الجاهلي، ص٩٩.
(٣٠) شرح اشعار الهذليين ٩٨/١- الذبر القراءة الخفيفة- الزبر: الكتاب وتنظر رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ص١٦٤- وفيها يزبره الشاعر.
(٣١) ينظر العصر الجاهلي ص٩٧، ص١٠١.
(٣٢) المصدر نفسه ص٩٨.
(٣٣) ديوان الشماخ ص١٢٩: العبري والعبراني- بالكسر فيهما لغة اليهود خط: كتب.
(٣٤) ديوان الشماخ ، ص١٢٩، هامش (٢).
(٣٥) المصدر نفسه والصفحة ، هامش (٢).
(٣٦) شرح ديوان لبيد ص٢٩٧ تأبد: توحش، الغول: ما انهبط من الأرض، المدافع: الأمكنة التي يندفع منها الماء، الريان: واد، الوحي: الكتابة السلام الحجارة.
(٣٧) ينظر شعر زهير ص٤٧، ص١٠١.
(٣٨) مختار الصحاح (وحي).
(٣٩) شعر زهير ص٢٢٩.
(٤٠) المصدر نفسه والصفحة.
(٤١) المصدر نفسه والصفحة .
(٤٢) شعر زهير ص٢٢٩
(٤٣) ينظر: الفهرست ص٣٥-٣٦.
(٤٤) المصدر نفسه، ص٣٦.
(٤٥) الفهرست ص٣٦ ..
(٤٦) ينظر: اللسان (طمر) .
(٤٧) رسائل الجاحظ / كتمان السر وحفظ اللسان ١/ ١٤٩-١٥٠ وقد أطلق عليها أبن قتيبة (سحاة) وجمعها سحآت وسحاء .وجمع السحاية سحايات وسحايا ينظر رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ص١٦٥ .
(٤٨) اللسان (دفتر) .

(٤٩) رسائل الجاحظ / رسالة في الجد والهزل ٢٥٣/١.
(٥٠) الحيوان ١/ ٦٠-٦١.
(٥١) المصدر نفسه ٥٢/١ .
(٥٢) ينظر رسائل الجاحظ / رسالة في الجد والهزل ١/ ٢٥٣ .
(٥٣) المصدر نفسه ٢٥٢/١ .
(٥٤) الفهرست ص١٩٥ .
(٥٥) المصدر نفسه ص٦٢.
(٥٦) المصدر نفسه ص٣٥.
(٥٧) ينظر فن الشرق الادنى القديم ص٢٥.
(٥٨) ينظر الفهرست ص٣٥-٣٦.
(٥٩) ينظر: رسائل الجاحظ- رسالة في الجد والهزل ٢٥٢/١.
(٦٠) المصدر نفسه ٢٥٣/١-٢٤٥ –الخريطة: هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو إلا دم تشرج على ما فيها – البرد: جمع بريد.
(٦١) ينظر: الفهرست، ص١٥٤.
(٦٢) رسائل الجاحظ/ في الجد والهزل/٢٥٤/١- العفاص: بالكسر جلد يلبسه رأس القارورة، مختار الصحاح، (عفص).
(٦٣) رسائل الجاحظ/ في الجد والهزل ٢٥٣/١.
(٦٤) مختار الصحاح (ردد).
(٦٥) مختار الصحاح (ردد).
(٦٦) رسائل الجاحظ/ في الجد والهزل ٢٥٣/١.
(٦٧) ينظر: الفهرست ص٣٦.
(٦٨) مختار الصحاح (طرس).
(٦٩) رسائل الجاحظ/ في الجد والهزل ٢٥٣/١.
(٧٠) المصدر نفسه والصفحة.
(٧١) المصدر نفسه والصفحة.
(٧٢) الحيوان ٥٤/١.
(٧٣) ينظر: رسائل الجاحظ/ في الجد والهزل ٢٥٤/١.
(٧٤) ينظر: رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ص١٥٩، ص١٦١.
(٧٥) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل ١٥٢/١-٢٥٣.

(٧٦) مختار الصحاح (حيا).
(٧٧) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل ١/٢٥٤.
(٧٨) ينظر: الفهرست ص٦٣.
(٧٩) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل/١/٢٥٢.
(٨٠) المصدر نفسه ١/٢٥٤.
(٨١) المصدر نفسه ١/٢٥٣.
(٨٢) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل: ١/٢٥٣.
(٨٣) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٨٤) الفهرست ص٢٩٩.
(٨٥) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل ١/٢٥٤.
(٨٦) المصدر نفسه ١/٢٥١.
(٨٧) رسائل الجاحظ، في الجد والهزل ١/٢٥١ -٢٥٢.
(٨٨) الحيوان ١/٥٥.
(٨٩) رسائل الجاحظ / في الجهد والهزل ١/٢٥٤ .